

«حرب لبنان»

بعين بحثية

محمد نورالدين ❖

في "سفر" ضخّم من مجلدين يقعان في ١٨٠٠ صفحة من القطع الكبير، أصدر المؤرخ اللبناني عبد الرؤوف سنو موسوعته "حرب لبنان: ١٩٧٥ - ١٩٩٠، تفكك الدولة وتصدّع المجتمع".

وربما تُراود ذهنَ القارئ عند مواجهته للعنوان والحجم، مقارنةً بديهية مع ما صدر عن الحرب اللبنانية من قبل كان له صفة موسوعية بل مصورة أيضاً. ومع إن الموسوعات المصورة تخدم هدفاً مهماً يوثق ويؤرخ لجوانب من الأحداث التاريخية، غير أن ما نحن أمامه من كتاب الدكتور عبد الرؤوف سنو يختلف كلية لجهة أن المؤلف لم يقع في إغراء العنوان ولا انجذاب اللبناني أولاً والعربي والأجنبي تالياً، وقدّم في المقابل مقاربة تاريخية علمية أكاديمية، تناولت كافة جوانب الحرب المذكورة ولا سيما في أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية، كما جاء في المجلد الأول.

ولقد وصف الكثيرون الحرب اللبنانية بـ "حروب الآخرين على أرض لبنان" أو "الحرب الأهلية اللبنانية" أو "الحرب اللبنانية". ويعترض المؤلف على هذه التسميات لأنها لم تعكس حقيقة أن الحرب لم تكن في الكثير من مراحلها صراعاً داخلياً صرفاً. بل تداخلت فيها عوامل متعددة خارجية، فلسطينية وسورية وإسرائيلية وعربية ودولية. وغالباً "ما كان يتم اصطناع وسائل الإضطراب الداخلي أو تغذيته... لتأجيج عوامل النزاع بين اللبنانيين" (ص ٢٣ من المقدمة).

لم يسعّ الدكتور سنو إلى استحضار ما حملته حرب لبنان من أحقاد وهواجس ولا إلى إلقاء التهم أو تحميل المسؤولية لهذا الطرف أو ذاك، بل قام بقراءة "عقلية واعية لمعرفة جذور الحرب وأسبابها وكيفية نشوئها وتفاعلاتها وتداعياتها وتطوّراتها ومساراتها وخواتيمها ودروسها... كي لا يؤدي نسيان

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية.

الكتاب:

"حرب لبنان ١٩٧٥ - ١٩٩٠" - مجلدان.

الكاتب:

الدكتور عبد الرؤوف سنو.

دار النشر:

الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٨ - عدد الصفحات ١٨٠٨.

ويلاتها وأضرارها إلى تكرارها وإعادة إنتاجها من جديد" (ص ٢٤). ربما ليس من "وظيفة" المؤرخ "الوعظ" أو "الإرشاد". وربما كان الاكتفاء باستبيان الحقائق وإظهار مسبباتها ونتائجها هو خير ما يعمل عليه الباحث، وهو ما فعله الدكتور سنو، مضيفاً إليه "واجباً أخلاقياً" لم يكن ملزماً به، كمؤرخ.

فالحرب التي انتهت رسمياً عام ١٩٨٩ بإتفاقية الطائف، لم تلبث أن تجددت بأشكال مختلفة بعد ١٥ عاماً من انتهائها في أعقاب صدور القرار الدولي رقم ١٥٥٩ في مطلع أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤ الذي فحّخ الوضع اللبناني والإقليمي الذي ما لبث أن انفجر في بإغتيال رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري في ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥، حيث انقسم اللبنانيون جبهتين متعارضتين وتصادموا ودخلت إسرائيل على الخط عبر عدوانها الواسع في تموز/يوليو ٢٠٠٦.

ولعل المؤلف لم يحلق في الأوهام عندما ذكر أن حرب لبنان طرحت إشكاليتين رئيسيتين: الأولى مسألة تحول لبنان إلى دولة حديثة في ظل نظام طائفي سياسي يقوم على التنازع على السلطة بين الطوائف؛ والثانية كيفية إعادة بناء الدولة اللبنانية على أساس دولة تصنع قرارها بنفسها في ظل قوى سياسية ومليشياوية داخلية وقوى إقليمية استولت على هذا القرار". وهاتان الإشكاليتان تجدان، برأينا، الجواب عليهما في داخلهما. فلا دولة حديثة في ظل نظام طائفي، ولا استقرار في لبنان من دون استقرار إقليمي أو حتى دولي.

لذا لم يعرف لبنان يوماً سلاماً دائماً أو استقراراً ثابتاً. بل كان تاريخ لبنان الحديث عبارة عن حروب متواصلة تتخللها هدنات. ولذلك وبغياب هذين الشرطين للسلام والاستقرار الداخليين لا يمكن للبنانيين أن "يحلّموا" لا بكيان مستقل وسيد وحرّ ولا بدولة قوية وعادلة.

من الصعب التفصيل في موسوعة المؤرخ عبد الرؤوف سنو. ولذا لا بد للقاريء أن يعود إليها لاقتنائها ولتشكل مرجعاً لا غنى عنه لاستكمال فهم ما جرى في لبنان بين ١٩٧٥ و ١٩٩٠، بدءاً من عوامل التفجير الداخلية والخارجية إلى مراحل الحرب الطويلة والمتعددة إلى المبادرات الكثيرة لوقف جولاتها.

وإذا كان المجلد الأول يعكس التطورات السياسية والعسكرية، وهو ما غلب على معظم الكتب التي صدرت عن الحرب، فإن المجلد الثاني يمتاز بتاريخه للجوانب الاجتماعية والاقتصادية من الحرب وأثرها على المجتمع والأسرة

والقيم والتعليم والهجرة وتفكك الدولة. كما يعرض هذا المجلد ثبناً مفصلاً عن دور منظمات المجتمع المدني المختلفة التي كانت الحاضنة للناس من الإنهيار التام.

كتاب "حرب لبنان" بمجلديه، قيمة فعلية للتاريخ عن أطول وأبشع حرب عرفها اللبنانيون، تزداد أهميتها أنها أتت بعين أكاديمية لها باعها المشهود في الدراسات التاريخية عن لبنان والمنطقة وعلاقتها بالخارج.